كلية التربية للبنات / قسم التاريخ

مادة التاريخ الأُموي

الصف الثاني محاضرة بعنوان

(صراعات الأسرة الأُموية وأثرها في سقوط دولة الخلافة الأُموية)

Umayyad family struggles and their impact on the fall of the Umayyad caliphate state

أ.د. حمّـــاد فرحان حمادي المحمدي prof. Dr. Hammad F Hammadi

إنَّ سقوط دولة الخلافة الأموية أمر طبيعي إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الدول كالأفراد والكائنات الحيّة ، تمر في أدوار ومراحل مختلفة من نمو وقوة وضعف ثم فناء ، وأنَّ كل دولة تُذكر بمآثرها وبما تتركه من آثار ايجابية ، قال تعالى في محكم التنزيل{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ }(54).

ويبدو أنَّ الانحلال الذي سرى في جسم الدولة له أسباباً خاصة ترجع إلى الظروف التي قامت في ظلّها ، وإلى الآثار الدينية والمعنوية التي أثارتها السياسة الأموية ، فضلاً عن أسباب عامة تكمن في التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي برزت نتيجة التوسّع غي الفتوحات والاحتكاك مع الشعوب المجاورة عسكرياً وحضارياً.

والواقع أنَّ سقوط دولة الخلافة الأموية ، لا يمكن أن يعُزى إلى حادث فرد ، ولا بدَّ أن تكون هناك جملة أسباب أدَّت إلى هذه النهاية المحتومة ، كان من بينها:

صراعات الأسرة الأُمويّة.

ترجع طموحات الأمويين وسعيهم إلى السلطة إلى عهد الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ، وأنَ معاوية بن أبي سفيان ، وهو من الفرع السفياني في الأسرة الأموية ، استطاع بجهوده الشخصية ، أن يصل إلى الحكم في عام (41هـ) بدعم مادي ومعنوي لم يأته من أسرته ، وأنما اتاه من جبهة شامية قبلية متماسكة وقفت

وراءه ، لذلك لم يكن لهذه الأسرة دور بارز في إدارة الدولة في عهده من الناحية الادارية والعسكرية ، إذ كان معظم ولاته من خارج الأسرة الأموية ، أمثال : المغيرة بن شعبة ، زياد بن أبيه ، عبد الله بن خالد بن أسيد ، الضحاك بن قيس الفهري ، وغيرهم ، كما استعان بقادة عسكريين من خارج أسرته أيضاً أمثال : بسر بن أرطأة ، عبد الرحمن بن خالد بن أسيد ، مالك بن هبيرة السكوني ، سعد بن أبي سرح ، معاوية بن حديج السكوني ، وغيرهم.

إلّا أنَّ معاوية لم يجاف أسرته جفاءً تاماً ، بل استعان بأفراد منها واضعاً نصب عينيه هدفين:

الأول: الاستعانة بالأكفاء منهم.

الثاني: الحيلولة دون ازدياد سلطانهم ونفوذهم بشكل يهدد مخططاته السياسية الرامية لبناء الدولة.

ولعلّ أبرز مجال اعتمد فيه على بني أمية ، كان ولاية العهد ، إذ اعتمد على مروان بن الحكم في أن يكون رسوله إلى الحجازيين لأخذ البيعة لإبنه يزيد.

وعمد معاوية أحياناً إلى بث الفرقة بين أفراد الأسرة الأموية ، والايقاع بين رجالاتها البارزين الذين قد يشكلون خطراً على سياسته ، وبهدف الحد من طموحاتهم ، إذ أوقع بين مروان بن الحكم وسعيد بن العاص .

وطبيعي أن تنعكس هذه السياسة الهادفة إلى حصر الخلافة بأفراد بيته ، على العلاقات بين أفراد الأسرة ، لا سيما حين يدب الضعف في أوصال الفرع السفياني ، فيأتي الفرع المرواني ليستخلص الأمر لنفسه .

لكن معاوية استطاع تحقيق وحدة الصف الأموي بما كان يمتلك من صفات ومؤهلات قيادية فذّة ، ويبدو أن هذه الوحدة أخذت بالتداعي حين أعلن عن نيّته البيعة لابنه يزيد بولاية العهد.

كان مروان بن الحكم الشخصية الباردة داخل الأسرة الأموية ، إذ تطلّع نحو الخلافة بما كان يمتلك من كفاءات قياديو وإدارية ، وقد ساعده تصرف معاوية وممارساته ، حين أخذ بتهيئة الأمور لصابحه الشخصي ثم لولده من بعده ، لكنه لم يستطع أن يسفر عن معارضته لهذه السياسة أثناء حياة معاوية ، وقنع بمجاراته حين أدرك أنّ الاحداث قد تجاوزته ، وكان مستعداً للتحرك بعد وفاته ، إلّا أنَّ الظروف الداخلية الخطيرة التي كانت تمر بهل الخلافة الأموية والتي تطلبت تظافر جهود الأمويين لمواجهتها، منعته من الجهر بمعارضته ، وقد تجلّى الخلاف ظاهراً بين آل أبي العاص ، وعلى رأسهم مروان بن الحكم ، وآل العاص بزعامة سعيد بن العاص من جهة ، وآل أبي سفيان من جهة أخرى .

ويبدو أن هذه الخلافات ظلّت محصورة فلم تؤثر على أوضاع الدولة الفتية الناشئة ، وقد امتصّها معاوية ، كما حالت الاحداث الداخلية دون تفاقمها في عهد ابنه يزيد .

واتّسم موقف مروان بن الحكم من خلافة معاوية الثاني بالسلبية ، إذ لم يكن راضياً عن تسلّمه الحكم ، إلّا أنَّ مدّة خلافته القصيرة لم تتح له العمل على على إبداء سلبيته ، ورغم أنَّ بعض الروايات ترّجح أنَّ معاوية الثاني مات مسموماً بتدبير من الفئة المعارضة .

وحانت الفرصة لمروان بن الحكم بأن يتسلم السلطة نتيجة مقررات مؤتمر الجابية ، ويبدو أنَّ الأسرة الأموية أرادت أن تضع حدّاً لِما سنّهُ معاوية من حصر السلطة في بيت واحد ، فقرر المجتمعون في الجابية ، أن يخلف مروان كل مت خالد بن يزيد بن معاوية ، ثم عمرو بن سعيد بن العاص ، لكن مروان أراد أن يقتضي بمعاوية ، فحصر السلطة في أبائه ، ونجح في إزاحة المرشحين ، وأخذ البيعة لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز ، ويبدو أنه ذهب ضحية هذا التصرّف .

كان ذلك أول خلاف جدّي بين أفراد الأسرة الأموية بعد استلام الفرع المرواني للخلافة ، وقد تفاقم بعد ذلك وظهرت آثاره للعلن ، ويعدُّ خلاف عبد الملك بن مروان مع عمرو بن سعيد ، الذي امتنع عن بيعة الأول ، من أشد ما وقع مت خلاف داخل الأسرة الأموية في هذه المدّة ، وقد أدّى إلى إراقة دم عمرو على يد عبد الملك بعد سلسلة من الأحداث ، ووقد قضى مقتله على آمال خالد بن يزيد في الخلافة ، وثبَّتَ بشكل قاطع ، حكم الفرع المرواني ، إلّا أنَّ ذلك قد فتح الباب مشرّعاً لنزاعات كثيرة سوف يشهدها العصر الأموي .

ويبدو أنَّ هذه الخلافات لم تؤثر على مسيرة الدولة في العقود الأولى من حكمها ، بفعل أنّها كانت لا تزال في طور الفتوّة ، وتمكنت من استيعابها، وكان لشخصية عبد الملك بن مروان أثر كبير في ذلك ، إذ نجح في إعادة توحيد العالم الإسلامي تحت رايته ، لكن الأحقاد ظلّت كامنة في النفوس تتحين الفرصة للانتقام .

ونهج عبد الملك بن مروان نهج والده ، فحصر الخلافة في أولاده بعد وفاة أخيه عبد العزيز ، فبايع لابنيه الوليد وسليمان بولاية العهد.

وحدّدَ الوليد سياسته تجله الأسرة الأموية ضمن اتجاهين:

الأول: الاستفادة من القدرات الأموية بما لا يتعارض مع مصالحه الشخصية ، ومصالح الفئة التي يمثلها.

الثاني: عدم السماح بقيام تكتل معارض داخل الأسرة الأموية.

مثّل الاتجاه الأول توليته عمر بن عبد العزيز والياً على المدينة ، كما عيّنَ أخاه عبد الله والياً على مصر ، وولّى أخاه مسلمة قيادة الجيوش على الجبهة البيزنطية.

وتجلّى الاتجاه الثاني حين قام نزاع بينه وبين أخوه سليمان بسبب موقف الأخير من آل المهلّب ، فقد رفض الخليفة إجارة أخيه ليزيد بن المهلّب منعاً لقيام مراكز قوى يكون ولاؤها لغير الخليفة ، ثم حاول خلع أخيه سليمان وتولية إبنه عبد العزيز ، لكن الموت عاجله .

ولمّا تولّى سليمان السلطة عزل جميع ولاة الوليد وقادته ، وعيّنَ رجالاً يثق بهم ويضمن ولاءهم . وشهد عصره صراع القيادات العسكرية ، كما تعرضت الدولة لنكسة خطيرة في الأندلس تمثّلت بمقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير ، في عام (97هـ(، مما سيكون له آثار سلبية مهّدت لانفصال الأندلس عن جسم الدولة.

كان سليمان قد ولّى ابن عمّه عمر بن عبد العزيز ولياً للعهد من بعده ، على أن يخلفه يزيد بن عبد الملم ، وقد عارض بعض أفراد الأسرة الأموية هذا التوجّه ومنهم هشام بن عبد الملك ، كما عارض العباس بن الوليد سياسة عمر بن عبد العزيز الانفتاحية ، وحصل جفاء بين الرجلين تطوّر إلى تشكيل جبهة معارضة تنامت بمرور الوقت ، وقرر المعارضون أخيراً التخلّص من الخليفة .

أمّا في عهد هشام بن عبد الملك فقد برز تيار معارض تزعّمه ابن أخيه وولي عهده الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، ودار صراع بين الرجلين ، فقرر الأول خلع الثاني من ولاية العهد وتولية ابنه مسلمة ، إلّا أنَّ الوليد أبى أن يخلع نفسه ، وفرَّ من وجه عمّه الذي ضايقه ، واستمر خارج دمشق حتى وفاة هشام .

وبوفاة هشام بن عبد الملك وتسلّم الوليد بن يزيد (الوليد الثاني) الحكم ، دخلت الأسرة الأموية في صراع جديد اتّسم بالحدّة أحياناً ، وشكّل منطلقاً لسلسلة طويلة من الاحداث المتسارعة ، أدّت إلى سقوط دولة الخلافة الأموية .

كانت علاقة الوليد الثاني بأبناء عمّه هشام عدائية ، فقد نعتوه بنعوت قاسية ، وكفّروه ورموه بالزندقة ، ونظموا حملة عدائية ضدّه ، وراحوا يجسّمون أخطاءه وهفواته ، ويتقوّلون عليه ، حتى حملوا الناس على الفتك به .

وهكذا شهدت الساحة الأموية في عهده تدهوراً خطيراً في العلاقات بين أفراد الأسرة الأموية ، وقد حملت معها بذور الشر ، كما سهدت تدهوراً خطيراً في الاوضاع الداخلية ، التي تجلّت في تنامي الصراعات القبلية التي كانت السند الاساسي لبني أميّة ، فضلاً عن بروز صراع الولاة والحكام على السلطة في الاقاليم .

ولا شك أنَّ الانقلاب الداخلي الذي حصل على حكم الوليد الثاني ، إنّما هو تعبير عن تناقضات كثيرة أصابت الجسم الأموي ، كانت موجودة قبل عهده استمرت بعد

تسلّمه الحكم ، ويعدُّ مقتل هذا الخليفة نذيرا بانهيار الأسرة الأموية ، وقد تمَّ على أيدي رجال من بني أميّة ، وجماعة من قضاعة واليمنية من أهل دمشق خاصة .

وهكذا فبعد أن كان الحكم الأموي يقوم على قاعدة قوية متماسكة أضحى بعد مقتل الوليد الثني ، يستند على جماعات متفرقة غير متجانسة ، ليس لها هدف يوحدها أو مصلحة تجمعها .

وازدادت أوضاع الأسرة الأموية تدهوراً علي عهد يزيد الثالث ، واشتدّت صراعات الأمويين الدامية على السلطة ، فكثر المتصارعون ، وعمّت الفتن الأطراف ، وظهر على مسرح الأحداث مغامرون يريدون أن يحققوا لأنفسهم مكاسب دنيوية في ظل ظروف قاسية بعدما عجزوا عن تحقيقه حين كانت الدولة قويّة . وقد شعر كل من مروان بن محمد حاكم الجزيرة وأرمينيا ، والعباس بن الوليد بهذه الوطأة وحاولا ردع يزيد .

وكانت وفاة يزيد الثالث وبيعة أخيه إبراهيم ، التي لم تتم بالاجماع ، من المشاكل الخطيرة التي حلّت ببني أميّة في بلاد الشام ، في الوقت الذي بدأ الوهن يظهر جلياً على جسم الدولة ، وقد أدّت هذه البيعة المزعزعة إلى مضاعفات كثيرة وخطيرة أهمها: التفسّخ في البناء الأموي ، وتنامي مطامع الاحزاب والأشخاص من التوّاقين لانتزاع السلطة من الامويين .

وبرز مروان بن محمد ، الذي أدرك مخاطر التنازع على السلطة ، ليؤكّد حضوره بعد وفاة يزيد الثالث ، كشخصية أموية لها دور مميز في الحياة السياسية .

ونتيجة لتفاقم الاوضاع الداخلية ، واشتداد الاخطار الخارجية في الولايات ، قرّرَ مروان حسم الامور لصالحه ، لكنه واجه عدّة حركات معادية في بلاد الشام بشكل خاص تزعّمها أفراد من الأسرة الأموية ، أمثال: سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وقد انهمك مروان في التصدي لها حتى أنهكت قواه ، ثم وجد نفسه عاجزاً عن التصدي لقوّة العباسيين المتنامية ، الذين زحفوا من الشرق وقضوا على دولة الخلاف الأموية .

والراجح أنَّ الأسرة الأموية لم تمتلك من الغطاء العقائدي ما يقيها خطر التمزّق ، بالرغم من أنَّ عمر بن عبد العزيز قد سعى لتأمين هذا الغطاء ، لكن بدون نجاح له صفة الاستمرارية.